اسباب الحرب البلقانية

من الكتب الماثلة للطبع في الآونة الحاضرة كتاب « الحرب في البلقان » لحضرة الكاتب البليغ يوسف افندي البستاني وهو جامع لجميع أسباب الحرب وحوادثها ونتائجها ، ولنحو اربعين رسماً من رسوم رجالها ، ولأهم آراء الكتاب الحربيين والمؤلفين في هذا الموضوع . وقد اقتطفنا من كلامه عن أسباب الحرب الفصل التالي . قال :

من رام أن يقف على حقيقة تلك الحرب الهائلة ويدرك أثرها العظيم في الشرق والغرب يلزمه أن يعرف أسبابها وحوادثها ونتائجها. وانّا بادئون بذكر تلك الأسباب واحداً فواحداً مع الايجاز ، ومعتمدون على نخبة من أقطاب السياسة وصفوة المؤرخين والباحثين في المسألة الشرقية . فان الحرب البلقانيــة ليست الاّ مشهداً كبيراً فاجعاً من رواية تلك المسألة التي تعددت فيها الفصول وأدمت مشاهدها العيون

يخلق بنا أن نحسب رأس الأسباب ما انطوت عليه الضلوع ، وغلت به الصدور من الحقد القديم والضغينة الكامنــة بين الأتراك والامم الاربع المتحالفة فان كل أمّة منها جعلت تربيــةَ الحقد في صدور أبنائها على دولة آل عثمان فرضاً مقدّساً وآيةً من آيات الوطنية . فاذا ورد ذكر التركي على أحد أساتذتها جعلهُ عنواناً للظلم ، ومثلاً للقسوة ، وعدواً ابدياً يجب على كل فرد أن يرضع بغضه مع حليب أمهِ

أنظر الى اليونان تجد الاساتذة والوالدين والوالدات وكلّ عجوز بالية يردّدون ذكرَ مجدهم القديم ، ويعدّون التركي مغتصباً لأرضهم هدّاماً للدولتهم ، هضّاماً لحقوقهم ، ويمزجون ما يحويهِ تاريخهم من الحقائق الجارحــة بخرافات وحكايات نظمها لهم أساتذتهم وشعراؤهم ليربّوا فيهم كراهة التركي ، ويحملوهم على التفكير المستمرّ في استرجاع ما وقع في قبضته من ملكهم القديم ، ويجعلوا طلب الثأر نصب

أعينهم الى أن يأتي وقته . ثم تراهم يهتمون اهتماماً خاصاً بأخبار أبطالهم والمنظومات الحماسية لشعرائهم القدماء وفي طليعتهم هوميروس صاحب الالياذة الخالدة ، ويردّدون على الاخصّ ، من الحوادث الغابرة ، قصة يسمونها «حكاية علي باشا في يانيا» فيعزون اليهِ من الفظائع والاهوال ما يشيب الطفل في مهده ، ويزعج الميت في لحده . وهم يجعلون فيها القطرة بحراً والصفر سفراً ويرتبونها كما يشاء الخيال ، اذ لا يهمهم منها الاّ أن تجيء في شكل يُبكي النساء والاطفال ، ويُثير قلوب الرجال . قال كاتب فرنساوي كبير « يمكننا ان نقول ولا نخشى الخطأ انّ حكاية يانيا حضّت الامة اليونانية على الجهد الذي بذلتهُ في الحرب الاخيرة حضًّا كبيراً وأثرت فيها تأثيراً شديداً . فانك تجد كل قرية وكل دسكرة في الجزر اليونانية تأخذها الرعدة من تذكار يانيا . وترى النساء ينقلنَ تلك الحكاية الى اولادهنّ ويذكرنَ ما أتته بعض اليونانيات من الأعمال في مجال القتال . وما من أثر أبقى فى النفوس وأقوى في القلوب من حكايات وطنية تعيدها الأم وهي جاثية أمام سرير ولدها »

واضف الى حوادث التاريخ القديم والمتوسط حادث الفشل الكبير الذي حلّ بهم في حرب سنة ١٨٩٧ . فانهم لبثوا بعدها يتطلعون الى الثأر واستقدموا جماعةً من الضباط الفرنساويين فنظّموا لهم جيشهم ، وجددوا مدافعهم . وكان يزيدهم حقداً على حقد أنّ الحكومة العثمانية ظلّت واقفة لدى الحكومة اليونانية ويدُها على مقبض السيف لتوقع الرُعب في قلبها وتمنعها من ضمّ جزيرة كريت الى أملاكها . وكانت جرائد الاستانة تنذر اليونان في كل يوم بالزحف على اثينا اذا قبلوا المندوبين الكريتيين في البرلمان اليوناني كما طلب اهل تلك الجزيرة

* * *

واذا رجعنا الى تاريخ البلغاريين وجدنا أنّ الحقدَ نما في قلوبهم منذ سنة ١٣٩٣ أي السنة التى سقطت فيها الدولة البلغارية في قبضة تركيا . واذا اراد

القاريء أن يعرف مبلغ بغضهم للتركي — وكلّ موظفٍ عثماني هو تركي عندهم — فحسبهُ ان يقرأ شيئاً مما يلقونهُ على أولادهم أو يسمع ما يقوله الشيوخ والعجائز منهم . ذكر لي صديقي حقي بك العظم انهُ زار صوفيا ، عاصمة البلغار ، منذ بضعة أعوام ، وذهب يوماً مع نسيبٍ له كان معتمداً عثمانياً سامياً في مركبة الوكالة العثمانيــة الى بعض أحياء المدينة ؛ وبينما كانا مارّين أمام بيت احدى العجائز ، خرجت هذه وبيدها قدرٌ من الأقذار المختلفة وقذفت بهِ على طربوشيهما وملابسهما العثمانية

وليس يدلنا على اعتنائهم الشديد بتربية الحقد على الأتراك وزيادة النفور منهم مثل أمر مأثور . وهو أنهم تركوا محلةً صغيرة في عاصمتهم على أسوإ حال لتكون عبرةً لكلّ بلغاري فيتذكر على الدوام ما كانت عليهِ بلادهم في عهد الحكم التركي . والواقع ان تاريخ البلغار (منذ سقوط دولتهم سنة ١٣٩٣ الى سنة ١٨٧٧) كان تاريخ ذُلٍّ وهوانٍ فانهم كانوا أرقّاء تلعب الأكفُّ التركية في رقابهم ، واذا شكوا حكمت السيوف في هاماتهم . ولبثوا سنواتٍ عديدة على أثر سقوط ملكهم يحسبون الأتراك من محتدٍ أشرف من محتدهم حتى صحّت فيهم حكمة القــائل « ان الابتعباد يُفقدَ الشعوبَ نصف فضيلة الرجولية »

. على انهم كانوا مثل كل شعب مغلوبٍ على أمره وله تاريخ قديم ، يذكرون استقلالهم الذي تغلغل في طياتِ الزمان ويحنّون اليهِ وهم في زوايا بيوتهم ، ويشكون بصوتٍ خافتٍ من حكامهم . ولبثوا على تلك الحال من الجبن والمسكنةِ حتى سنحت الفرصة لانفجار حقدهم الكامل قُبيلَ معــاهدة برلين . وكانت عوامل ايقاظهم ثلاثة : أولهــا انّ ولاة أمورهم غلوا أشدّ غلوٍّ في الضغط عليهم فكانت نتيجة هذا الضغط انفجار ذاك الحقد ؛ والثاني أن روسيا العدوّة القديمة لتركيا كانت تحضهم وتمدهم بالعون والمدد ؛ والثالث ان تحريرهم من قيد الكنيسة اليونانية أنشأ فيهم روح الاستقلال

بقيت تلك العوامل الثلاثة تعدّ نفوسهم للثورة وتزيد حقدهم المتأجج حتى هبوا ينفضون عنهم غبار الذُلّ العتيق . ولما ثارت البوسنه والهرسك سنة ١٨٧٥ رأى ذوو الإقدام منهم أنّ الفرصة كانت موافقة للثورة وشفاء النفوس من الضغينة على انهم لم يكتفوا بالخروج على الحكومة بل ارتكبوا جناية ذبح المسلمين في بعض القرى . ولم تكن ثورتهم وقتئذٍ عامةً لان قسماً كبيراً منهم كان لا يزال خائفاً من سادته الاتراك . وما ترامى خبر فتنتهم الى الباب العالي حتى عقد العزيمة على تأديبهم وكان التأديب واجباً . الاّ انهُ أخطأ الطريقة المثلى فاطلق عليهم ألوفاً من الجنود غير المنظمة بدلاً من أن يسير اليهم جنوداً نظامية تحت أمرة قائد عاقل يضع اللينَ في محلهِ والشدة في موضعها . وروى قنصلا فرنسا وانكلترا في تقاريرهما الرسمية « ان عدد الذين ذبحتهم تلك الجنود من رجال ونساء وأطفال يبلغ ما بين ١٥ و٢٠ الف نفس »

فكان لذلك الحادث صدى عظيم في أوروبا ، وهبّ غلادستون فالقى خطبهُ الشهيرة عن تركيا والأتراك وانسى الاوربيين ان البلغاريين فتكوا هم أيضاً بالمسلمين الآمنين . ولا غرو فان الحادث الاكبر ينسي الحادث الاصغر ؛ وهناك سبب آخر وهو ان شعور كل فئة بنكبات أهل دينها أشد من شعورها بارزاء الآخرين، وهذا طبيعي تجده عند جميع الامم والملل ولا يتغير ما دام الانسان انساناً . وقليل هم لسوء طالع الانسانية أولئك الذين يضعون الحق فوق كل شيء

على ان هذا كلهُ بعضُ ما جرى بين العدوّين وهو يكفي للدلالة على ان الجيش البلغاري لم يزحف وحدهُ من صوفيا بل زحف هو وحِقدُ خمسماية سنة !..

* * *

وليس حقدُ الصربيين وأهل الجبل الاسود على الاتراك باخفّ من حقد اليونانيين والبلغاريين . فانهم مثل حلفائهم يربّون في ابنائهم محبة الثأر من تركيا ،

ولا ينسون انتصار الاتراك عليهم وفتكهم الذريع بهم . ذكر الموسيو « البير مالي » الاستاذ الكبير في التاريخ السياسي ان المؤرخ الصربي « ليوبا كوانتشفيتش » وقف يرثي ابنه الذي قتل في احدى معارك الحرب البلقانية فقال :

(يا بنيَّ نم بسلام فقد اوفيتَ دينك للوطن . وقل لدوشان ولازار بل قل لجميع شهداء قوصوه ان أمتهم ثأرت لقوصوه ...) . ولقد دلت الحرب على ان الثأر الذي اشار اليهِ هذا المؤرخ الصربي هو امنية كل فرد من امته ، وانَّ الحقد على الأتراك شامل لطبقاتها . قال ايضاً الموسيو « البير مالي » ان معارك قوصوه — التي حدثت من نحو ٥٠٠ سنة — ما زالت تذكر عندهم كما تذكر حوادث حرب السبعين عند الفرنساويين ، وما برحوا يرددون تذكار القيصر دوشان والقيصر لازار حتى الآن

ثم روى الاستاذ نفسه دليلا على احتفاظ الصربيين بما يُضرم الضغينة في قلوبهم على الأتراك قال : ان الفاً من الصربيين كانوا سنة ١٨٠٩ محصورين في احد المعاقل على مقربة من مدينة نيش ، فرأوا ان الأتراك أوشكوا ان يستولوا على موقعهم عنوةً ؛ فاختاروا ان ينسفوا معقلهم بما كان عندهم من البارود على ان يقعوا احياء في ايدي اعدائهم ؛ ثم جاء الاتراك بعد نسفه وفصلوا رؤوسهم عن الجثث وجعلوا منها شبه برج . ولما دخل الصربيون مدينة نيش سنة ١٨٧٨ كان ذاك البرج محفوظاً على شكله ؛ فرفعوا الجماجم ودفنوها في مقبرةٍ وابقوا البرج ليراه الابناء والاحفاد ، ولقبوهُ ببرج الجماجم ، واصبح امره موضوع قصص العجائز والوالدات في البيوت والاساتذة في المدارس

وليس من غرض هذا الكتاب أن نفيض في شرح الوقائع التاريخية التي اشعلت نار ذاك الحقد . فانا نختم الكلام عن هذا السبب الاول من أسباب الحرب بما تضمنهُ قانون أصدرتهُ حكومة الجبل الاسود سنة ١٤٨٤ ليكون دليلاً آخر على

الحقد القديم في صدور أهل ذاك الجبل أيضاً وهو :

« اذا نشبت الحرب بيننا و بين الأتراك فلا يجوز لاحد من أهل الجبل ان يترك ساحة القتال الا بامر رئيسه . وكلّ من يفرّ أمام الترك يفقدْ شرفه الى الابد ويُصبح محتقراً منبوذاً من آلهِ ، ثمّ يُلبس ثوب امرأة ويُعطى مغزلاً ليشتغل بهِ مع النساء ، وتعمد النسوة أنفسهنّ الى طرده كما يطرد الجبان الذى يخون وطنه »

وهنا ندع القاريء يفكر في الحالة النفسية التي كان فيها أعداء تركيا يوم ساروا الى الحرب وهم يؤملون النصر

يوسف البستانى

سفراء الدول

يلعب السفراء في الآونة الحاضرة دوراً خطيراً في الحوادث التي تشغل الآن العالم قاطبة . وبهذه المناسبة ننشر للقراء المقالة الآتية التي كتبها خصيصاً « للزهور » حضرة الكاتب المجيد اسكندر افندي شاهين « صاحب الرأي العام » ورئيس تحرير « الوطن » . قال :

اذا كان لك على الزمان قضية وفي صدرك الكريم من أهل الزمان غلة لأنهم لم ينصفوك او لأن عامتهم نسبت فضلك الى سواك فاعلم ان لك في هذا الظلم شركاء يقومون بكبير الأعمال ويُمدح غيرهم من سراة الرجال . هم السفراء ينوبون عن ملوك الأرض وشعوبها . وينجزون المهام العسيرة على مهلٍ ، ويحلّون المعضلات من وراء الحجاب فلا يدري الجمهور بما فعلوا ويزعم الأفراد ان الفضل في الحل لمعاشر الملوك والوزراء . ولطالما تغنّت الأقوام بمدح ملك وردّدت ذكر ذكائهِ الشديد ورأيهِ السديد مع ان الملك لم يكن الاّ عاملاً برأي سفيرهِ ، ولو ترك الأمر لهُ لبقيت الحالة كما كانت او ساءت وتغيّر تاريخ بني الانسان . وربما وقع الوزير في